

الفصل الرابع

الإمامة

الاعتقاد بالإمامة هو من اصول المذهب عند الشيعة الإمامية.

المقصود من الشيعة

الشيعة في اللغة بمعنى : الأتباع ، و يقول ربنا في الذكر الحكيم : (وَ إِنِّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ) . الصافات ، 83

أي أنّ من أتباع نوح إبراهيم .

والشيعة في اصطلاح المسلمين تطلق على فرقة إسلامية تعتقد أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) عين خليفة المسلمين قبل رحيله من هذا العالم ، وقد بين ذلك في مواطن متعددة أحدها اليوم الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة والمعروف بـ «يوم الغدير» حيث صرح بتعيينه خليفة أمام جمع عظيم من المسلمين ، وأنه المرجع السياسي والعلمي والديني بعده (صلى الله عليه وآله) .

توضيح ذلك : أنّ المسلمين من المهاجرين والأنصار صاروا على طائفتين بعد النبي (صلى الله عليه وآله) وهما :

1 - الفرقة التي تعتقد أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) عين خليفة وولياً يليه ، وهو أول المؤمنين به علي بن أبي طالب .

وقد ضمت هذه الفرقة طائفة من المهاجرين والأنصار ، وعلى رأسهم وجوه بني هاشم وجماعة من كبار الصحابة ؛ كسلمان و أبي ذر و المقداد وخباب بن الأرت و أضرابهم ، وقد ثبتوا على هذه العقيدة ، وعرفوا بـ «شيعة علي» .

و هذا الاسم مستلهم من قول رسول الله (صلى الله عليه وآله) عندما أشار لعلي و قال كلمته المعروفة كما نرى في الحديث التالي :

"أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : كنا عند النبي (صلى الله عليه وآله) فأقبل عليّ فقال النبي (صلى الله عليه وآله) : والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة". الدر المنثور لجلال الدين السيوطي، ج 6 ، ص 379 ذيل الآية : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) .

2 - الفرقة التي تعتقد أن الخلافة تابعة لانتخاب المسلمين أو أهل الحلّ و العقد الذين يحددون الخليفة ، ومن هنا عقدوا البيعة مع أبي بكر ، وقد عرفوا بعد ذلك بـ«أهل السنة» .

والذي انتهت اليه الأمة الإسلامية هو حصول هاتين الطائفتين ، لاختلافهما في مسألة الخلافة ، مع اشتراكهما في كثير من الأصول والفروع ، وقد اتضح أن أساسهما هو المهاجرون والأنصار .

مميزات الإمام و خليفة الرسول

الشيعة تعتقد بأنّ الإمام الذي هو خليفة النبي الأعظم (ص) يجب أن يكون معصوماً و منصوصاً عليه بالخلافة و أعلم الناس في زمان إمامته.

أما الدليل على وجوب العصمة للإمام فهو نفس الدليل الذي ذكرناه على ضرورة عصمة الأنبياء في الفصل الثالث.

أما لزوم النصّ على إمامته من الله و رسوله ، فلأنّ مقام العصمة أمر لا يكشف عنه إلا الله ، الذي هو علام الغيوب و نبيه الكريم الذي يوحى إليه من ربّ العزة و الجلال ؛ فلا بد من إشعار من الله و رسوله ليعلم الناس من هو متصف بميزة العصمة ، و بالتالي، يكون أماماً للامة و خليفة للرسول (ص).

أما ضرورة الأعلمية للإمام و خليفة الرسول (ص) ، فلأنّه قائد الأمة إلى شاطئ الهداية ، و رائد سفينة الإسلام و المسلمين إلى بر الأمان. فيجب أن يكون أعلم الناس بسبل الفلاح و النجاح ، و أفقه المسلمين بطرق السعادة و الكمال.

و على هذا الأساس ، تعتقد الشيعة بإمامة الأئمة الإثنا عشر عليهم السلام. و ذلك لتوفر الشروط المذكورة و المميزات اللازمة في هؤلاء العباد الصالحين ، كما سنقدم النصوص و الأدلة على ذلك.

التنصيب على خلافة علي ابن أبي طالب

أشرنا سابقا إلى أنّ الشيعة تعتقد بوضوح أنّ الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه وآله) منصوبة.

وتاريخ حياة نبينا (صلى الله عليه وآله) شاهد لما نقول ; حيث نراه (صلى الله عليه وآله) عرف علياً للناس في مواطن متعددة بعنوان الولي والخليفة من بعده ، ونحن نكتفي بذكر ثلاث منها :

1 - في بدء البعثة المباركة ، وعندما أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بدعوة عشيرته للتوحيد بقوله تعالى في سورة الشعراء (214) : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ، خاطب الحاضرين بقوله :

إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه ، فأياكم يوازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم ؟

فأحجم القوم عنها جميعاً ، إلّا عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ، فعندها التفت رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى الحاضرين وقال :

إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا . (تاريخ الطبري، ج 2 ، ص 63 . الكامل في التاريخ ، ج 2 ، ص 40 - 41 . مسند أحمد ، ج 1 ، ص 111 . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج 13 ، ص 210 - 212) .

2 - قال النبي (صلى الله عليه وآله) لعليّ (عليه السلام) في غزوة تبوك :

أفلا ترضي يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي ؟ !

يعني أنّه كما كان هارون (عليه السلام) الوصيّ المباشر ومن دون فصل لموسى (عليه السلام) ، كذلك أنت وصيي وخليفتي . (سيرة النبي (ص) لابن هشام ، ج 4 ، ص 947 . السيرة النبوية لابن كثير ، ج 4 ، ص 12) .

3 - في السنة العاشرة من الهجرة وعند رجوع رسول الله (صلى الله عليه وآله) من حجة الوداع وفي منطقة «غدِير خم» وأمام حشود بشرية عظيمة من المسلمين عرف رسول الله (صلى الله عليه وآله) علياً بعنوانه ولياً للمسلمين ، فقال :
«من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه».

الأمر الجالب للانتباه هو قول النبي (صلى الله عليه وآله) قبل ذلك وفي أول خطبته حيث قال :
«ألسنت أولى بكم من أنفسكم؟»
فأجاب المسلمون أجمع بقولهم : بلى .

وينبغي القول بأن مراد النبي (صلى الله عليه وآله) من قوله :
«مولاه» هو أولويته بالمؤمنين وولايته عليهم وأنه صاحب الاختيار التام فيهم . ويمكن أن نستنتج أنه أثبت بذلك لعلي (عليه السلام) نفس الأولوية الثابتة له (صلى الله عليه وآله) .

وفي هذا اليوم قال حسيان بن ثابت أبياته التي ذكر فيها هذه الحادثة التاريخية المهمة فقال :

يناديهم يوم الغدير نبيهم
بخم وأسمع بالرسول مناديا
فقال فمن مولاكم و نبيكم؟
فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا و أنت نبينا
ولم تلق منا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا علي فأنني
رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه
فكونوا له أتباع صدق مواليا
هناك دعا اللهم وإل وليه
و كن للذي عادى علياً معاديا

(الغدِير ، ج 2 ، ص 34 . المناقب للخوارزمي ، ص 80 . تذكرة خواص الأمة لسبط ابن الجوزي ، ص 20 . كفاية الطالب ، ص 17) .

وحدِيث الغدير من الأحاديث المتواترة بين المسلمين وقد رواه علماءنا و ثلاثمئة وستون عالماً من علماء أهل السنة ، وتنتهي أسانيدھا الى مئة وعشر من الصحابة .

(انظر - كنموذج لذلك - كتاب الصواعق المحرقة لابن حجر (الطبعة الثانية، طبع مصر) الفصل 2، ص 122).

وقد كتب ستة وعشرون من كبار علماء المسلمين كتباً في أسناد وطريق حديث الثقلين . وقد جمع أبو جعفر الطبري - المؤرخ المعروف - أسناد وطرق هذا الحديث في جزئين كبيرين . وللإطلاع على تفصيل أكثر في هذا المجال راجع كتاب الغدير .

مضافاً علي هذه الروايات المتواترة ، نجد في القرآن آيات متعددة تدل على ولاية علي ابن أبي طالب (ع) ، و نحن نذكر نموذجاً منها:

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) . (المائدة : 55) .

وقد صرّحت الروايات الصحيحة في كتب الفريقين بأن الآية الشريفة نزلت في حق علي عندما تصدق بخاتمه علي الفقير أثناء الركوع. (راجع كتاب الغدير ، ج 2 ، ص 58 . و المناقب للموفق الخوارزمي ، ص 265 .).

وقد نظم الشاعر المعروف حسّان بن ثابت هذه الواقعة في أبيات له بعد نزول هذه الآية في شأن علي ، فقال :

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي
وكل بطيء في الهدى ومسارع

أ يذهب مدحي و المحبين ضايعاً!
و ما المدح في ذات الإله بضايع

فأنت الذي أعطيت إذ أنت راع
فدتك نفوس القوم يا خير راع

بخاتمك الميمون يا خير سيد
و يا خير شار ثم يا خير بايع

فأنزل فيك الله خير ولاية
و بينها في محكمات الشرايع

الأئمة الإثنا عشر

صِرَّحَ النبيِّ الكريم (صلى الله عليه وآله) في حياته الشريفة أن الخلفاء بعده اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش ، و أن عزة الإسلام في ظل خلافتهم ، فروى جابر بن سمرة :

سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة ، ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي: ما قال ؟ فقال: كلهم من قريش (صحيح مسلم ، ج 6 ، ص 3).

ولا نجد في تاريخ الإسلام اثني عشر خليفة حافظين لعزة الإسلام سوى الاثني عشر خليفة الذين يعتقد بهم الشيعة ، وذلك أن هؤلاء الخلفاء الذين ذكرهم النبي(صلى الله عليه وآله) جاؤوا بعده مباشرة ومن دون فصل . ومن هنا فلا بد من معرفتهم .

وإذا لاحظنا الخلفاء - عدا الخلفاء الأربعة والذين يطلق عليهم عند أهل السنة عنوان «الخلفاء الراشدون» - فلا نجد لهم سبب عزة للإسلام ، وتاريخ حياة خلفاء بني أمية وبني العباس يشهد لما نقول .

و أما أئمتنا الاثنا عشر فإنهم جميعاً مظاهر الورع والتقوى في زمانهم وعصرهم ، والحافظين لسنة نبينا الكريم (ص) ، بل كانوا محط أنظار الصحابة والتابعين ومن تلاهم ، بل قد شهد المؤرخون بعلمهم ووثافتهم .

وهؤلاء الأئمة الاثنا عشر هم:

- 1 - علي بن أبي طالب .
- 2 - الحسن بن علي (المجتبى) .
- 3 - الحسين بن علي .
- 4 - علي بن الحسين (زين العابدين) .
- 5 - محمد بن علي (الباقر) .
- 6 - جعفر بن محمد (الصادق) .
- 7 - موسى بن جعفر (الكاظم) .
- 8 - علي بن موسى (الرضا) .
- 9 - محمد بن علي (التقي) .
- 10 - علي بن محمد (النقي) .
- 11 - الحسن بن علي (العسكري) .
- 12 - الإمام المهدي (القائم) ،

ولأجل التعرّف والاطلاع على حياة هؤلاء القادة العظماء والذين وردت أسماءهم على لسان النبي (صلى الله عليه وآله) راجع الكتب التالية :

1 - تذكرة خواصّ الأمة . 2 - كفاية الأثر . 3 - وفيات الأعيان .
4 - أعيان الشيعة (للسيد محسن الأمين) وهو أجمع هذه الكتب .

الدليل على عصمة الأئمة من اهل البيت

الأدلة على عصمة أئمتنا - والذين هم جميعاً أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) - متعددة ، نكتفي بذكر أحدها فقط :

روى علماء المسلمين - سنة وشيعة - عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله في آخر أيام حياته الشريفة :
إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله، وأهل بيتي ، وإنهما لن يتفرقا حتى يرثي الحوض.

(المستدرک على الصحيحين (للكاظم النيشابوري) ، ج 3 ، ص 148 ، الصواعق المحرقة ، الباب 11 ، الفصل الأول ، ص 149. وورد هذا المضمون في مسند احمد بن حنبل، ج 5، ص 182 و 189. كنز العمال، ج 1، ص 186، ح 944).

ومما لا ريب فيه ولا شك يعتريه أنّ القرآن الكريم مصون عن التحريف والخطأ ، إذ لا يمكن سريان الاشتباه والخطأ إلى الوحي الإلهي، مع أنّ الموحى هو الله جلّ وعلا ، والحامل للوحي هو جبرئيل (عليه السلام)، والمتلقي له نبينا الكريم عليه وآله صلوات المصلين، فكيف يعقل وقوع الاشتباه والخطأ في مثله مع وضوح عصمة الجميع، بل عصمتهم أجلى من الشمس في رابعة النهار؟! كما ان عقيدة جميع المسلمين في النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه مصون من الاشتباه والخطأ في مقام تلقي الوحي وفي مقام تبليغه.

فلما كان للكتاب العزيز هذه الصيانة والعصمة فمن الواضح أنها ثابتة لأهل بيت النبي أيضاً؛ وذلك أنّ هذا الحديث الشريف جعلهم عدلاً للقرآن وقرباناً مساوياً له في مقام هداية الناس وقيادتهم، ومن لوازم هذه المقارنة والتساوي هو استواءهما من ناحية العصمة وعدم الخطأ .

وبعبارة أخرى: لا يصح جعل شخص أو أشخاص غير معصومين كقرباناً لما لا يعتريه الخطأ والزلل .

ومني أوضح الأدلة على عصمتهم قوله (صلى الله عليه وآله):
«وإنهما لن يتفرقا حتى يرثي الحوض».

فإذا أمكن وقوع الأئمة من أهل البيت (عليهم السلام) في الخطأ ووقعوا فيه، فإنه يلزم افتراقهم عن الكتاب - الذي لا

يعتبره الخطأ والزلل - وسيكون سبيلهم غير سبيل القرآن، مع أن النبي (صلى الله عليه وآله) نفى ذلك بشدة .

نعم ، المراد من «أهل البيت» في الحديث الشريف ليس هو جميع من انتسب إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله) نسباً أو سبباً؛ لوضوح عدم كون الجميع مصوناً عن الخطأ . وعلى هذا فالمتصف بهذه الصفة والمتجلي بهذا المقام إنما هو جماعة خاصة من عترته، وهم أئمتنا (عليهم السلام) الذين هم مشاعل الهداية لأمة جدهم(صلى الله عليه وآله)، والحافظين لسنته ، والحامين لشريعته.

المهدي المنتظر

مما اتفقت عليه الشرائع السماوية هو مجيء المصلح العالمي في آخر الزمان ، وهذا ما يعتقد به النصارى واليهود فضلاً عن المسلمين، والجميع في حال انتظار هذا العادل الذي سيملاً الأرض عدلاً . وبمراجعة كتب العهد القديم والعهد الجديد تتضح هذه الحقيقة بشكل أكثر . (1) وفي هذا المضمار روى المحدثون عن النبي (صلى الله عليه وآله) قوله:

«لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً». (2)

فهذا المصلح الذي ينتظره الجميع مما اتفقت عليه الأديان المختلفة - كما مرت الإشارة إليه - ووردت فيه روايات كثيرة من طرق الفريقين بل في صحاح ومسانيد أهل السنة روايات كثيرة في حقه، وقد حرر جملة من المؤلفين والمحققين كتباً ورسائل كثيرة تعنى به. (3)

(1) كتب العهد القديم هي : مزامير داود(عليه السلام) ، المزمور 96 و 97 ، وكتاب النبي دانيال(عليه السلام) ، الباب 12 .

(1) سنن أبي داود ، ج 2 ، ص 310 ، ح 4283 . ينابيع المودة ، ص 432 . نور الأبصار ، الباب 2 ، ص 154 .

(1) من هذه الكتب : البيان في أخبار صاحب الزمان ، تأليف : محمد بن يوسف الكنجي الشافعي . والبرهان في علامات مهدي آخر الزمان ، تأليف : علي بن حسام الدين المعروف بالمتقي الهندي . والمهدي والمهدوية ، تأليف : أحمد أمين .

و أما علماء الشيعة فلهم تأليفات كثيرة في هذا المجال يعسر احصاؤها وعدّها ، ككتاب الملاحم والفتن و ...

وقد ذكرت هذه الروايات أوصافه بنحو بحيث تنطبق بدقة على الثاني عشر من أئمة أهل البيت وهو المهدي ابن الإمام الحسين العسكري. (راجع ينابيع المودة ، الباب 76 ، في المناقب المروية عن جابر بن عبد الله .) ، ففي هذه الروايات أن اسمه كاسم النبي (صلي الله عليه وآله) ، وأنه الوصي الثاني عشر ، وأنه من ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) .

هذا ، وقد ولد المهدي (عليه السلام) في السنة 255 بعد الهجرة ، ولا زال حياً ، يعيش بيننا لكننا لا نعرفه . علماً أن طول عمره بهذا المقدار لا ينافي شيئاً مما ثبت علمياً ، ولا شيئاً مما ثبت بالنقل . بل يحاول العلم في يومنا هذا إطالة العمر الطبيعي للإنسان ، ويرى أنه ممكن إذا ما أمكن الحد من تأثير بعض العوامل الدخيلة في إلحاق الضرر بالإنسان .

ومن جانب آخر فقد ذكر التاريخ أسماء جملة من المعمرين ، بل إن القرآن الكريم صرح بذلك حيث قال في شأن نوح(ع) :

"لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا". سورة العنكبوت : 14

وقال في شأن يونس(عليه السلام) :

"فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ". سورة الصافات : 143 و144

كما أن الخضر وعيسى(عليهما السلام) - من خلال الرؤية القرآنية - أحياء فعلاً ، بل عليه اتفاق جميع المسلمين .
